في ضيافة الزرادشتيّين

لم تكن الطريق إلى السليمانيّة، التي أزورها للمرّة الثانية، صعبةً بعد العاصفة الثلجيّة التي ضربت المنطقة. فالطريق عبر كركوك كانت معبّدة وسهلة بالرّغم من كثرة المحطّات الأمنيّة "السيطرات"، الكردستانيّة والحكوميّة المركزيّة.

كذلك الأمر بالنسبة لحادثتي سير توقفنا عندهما بعض الوقت، مساهمين في إطفاء النيران المشتعلة في سيّارة نقل كبيرة، ومن ثم في سيّارة ركّاب سياحيّة التهمتها النيرانُ بالكامل. والسبب، كما شرحه المُرافق ابن كركوك، متأسّفًا، الاستمرارُ في الفساد المتفشّي في دوائر الدولة كما في طبقاتِ الشعب المغلوبِ على أمره؛ فيعمدُ بعضُ المستفيدين، وطمعًا بالربح السريع، إلى مزجِ البنزين بالغاز الكثير في المنطقة، ما يسهّل اندلاعَ النيران في المحرّكات وحواليها.

هذا الغاز المشتعل باستمرار في آبار كركوك الغنيّة، كانت له دلالاتٌ أخرى واستعمالاتٌ نورانيّةٌ رمزيّة منذ القديم، إذ كان يشيرُ إلى وهج ميثرا، وعلاقة نورها بالمعرفة، والحكمة، والوجدان المستنير "دئينا نكويا"، ويوقد شعلةَ الحياة في الأرض الخصبة. ولا زال حتى اليوم متوهّجًا في معابد الزرادشتيّين في إيران، وكردستان، والهند، وحيثما حلّت الجالياتُ الزرادشتيّة في العالم وصلّتْ، وباركَتْ، واحتفلَتْ بالمؤسّس المجدّد زرادشت.

كانت النيرانُ المشتعلةُ تمثيلًا لحضور ربّانيّ لا يقابله سوى قلوبٍ مشتعلة بالفضيلة وأفكارٍ مستنيرة بهدي التعاليم الأخلاقيّة. فزرادشت هو أوّل من أدخل الأخلاق إلى الدين، مُشدّدًا، – انطلاقًا من تجربة صوفيّة متقدّمة لامست الرجاء العميق بالحدث المسيحانيّ الذي يبشّر بملك العدالة بين البشر –، على عمليّة الانعكاس النورانيّ المتّقد عموديًّا بين المؤمن، من جهة، وآهورامزدا، من جهة ثانية، تجلّيًا أدبيًّا، أخلاقيًّا عمليًّا يطول البشرَ كافّة دون تمييز البتّة بين مؤمن وغير مؤمن. فترجمةُ المشاعر المتقّدة حُبًّا للسابق المبشّر بالحقّ (سوشيانت)، كقراءة ما بقي من تعاليمه النورانيّة، لا تصحُّ إلّا في علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وفي حضوره المجتمعيّ الفاعل الذي يفرضُ عليه أنظمةً، وشرائعَ، وتقاليدَ لا تقلّ أهميّة عن التعليم العقائديّ، بما أنّها تفسيرٌ حيّ لها وعيش مبارك!

وحين كان نورُ النجم الساطع فوق اليهوديّة علامةً لشروق جديد، هرولَ المجوسُ الثلاثة مُسرعين إلى بيتَ لحم للاحتفال وتقديم الهدايا، عربونَ تقدير، واحترام، وتسليم للمشيئة الربّانيّة، معترفين، بالتالي، أنْ لا حصريّة في الكشوفات، ولا خصوصيّة في التكريم، ولا ذاتيّة مفرطة في عبادة الحقّ، وتفسيره، والعمل به وعلى هديه. انطلاقًا من هذه الحقائق التاريخيّة، وبناءً على مقتضياتها بين–البشر، استهلّ كاهنُ المعبدِ المضياف، إسروان قادرؤك كلمتَه الترحيبيّة، متوجّهًا أوّلًا إلى بني بيته، وكأنّي به يريدُ منهم تقدمةَ التكريم ذاته لكاهن المسيح الذي يزورُهم في معبَدهم دون ذهب ومرّ ولبان، بل حاملًا معه سلامَ الأرض التي احتضَنت الزائرَ الإلهيّ، وسجّلت وقعَ قدميه على طول الشاطئ وعلى صخور وديانه وجباله؛ هي ممرّاتٌ حفظها المجوسُ غيبًا، إذ كان النجمُ هاديًا ودليلًا.

رجل الدين إسروان قادرؤك

وقبل أنْ يعطيني الكلامَ، كواحدٍ منهم، أكملَ رجلُ الديّن طقسَ التأبين بفقيدٍ وارَوهُ الثرى منذ يومين، في إحدى مقابر المسيحيّين، إذ ليس للزرادشتيّين مقابر خاصّة بهم في دولة تحكمها شريعة إلغائيّة. وكان الراحل قد أمضى حياتَه شاهدًا حيًّا للتعاليم الزرادشتيّة الأصيلة، مساهمًا في استمراريّة الحفاظ على الإرث الثمين الذي استلموه على هذه الجبال المشتعلة أبدًا ذكرًا طيّبًا وعملًا صالحًا. فلم يجد مثوًى أخيرًا إلّا عند المسيحيّين الوحيدين الذين لا يبخلون على مواطنيهم بمكان يحفظون فيه رفاةَ غائبٍ منهم وعنهم.

توالت الكلماتُ التأبينيّة، في الكرديّة، وشدّدت كلُّها على خصال الرّاحل ومزاياه الغنيّة، مازجينَ الكلمةَ باللحن الرّاقص مع ألسنة النار التي لا تطفأ. ولئلّا تخبو حرارةُ الشوق الناتج من الخسارة الكبيرة، ولكي تُصقلَ من جديد مفاعيلُ التعزيةِ والسلوان على نور التعليم الأصيل، كانت للمحتفل، قراءةٌ ملحّنةٌ لمقاطعَ من الغاتا أو تعاليم زرادشت النورانيّة خُتمت بنشيد زرادشتي أنشده الجميع وقوفًا. وبعدها طلب منّي التقدّم لإلقاء كلمة بالمناسبة.

ومع عساك تقول في هذا الجوّ الحميم حيث لا بخور يشتعلُ سوى الذكر الطيّب، ولا شيء يزيّنُ المعبدَ سوى العيون المتّقدة إيمانًا، والقلوب النابضة وفاءً وتضامنًا؟ تضاف بساطةُ الطقس إلى بساطة المعبد بحدّ ذاته. وحدها صورة

المؤسّس تتوسّط الحائط وراء الموقد المشتعل أمام علم كردستان الذي يعلو القنطرة انصياعًا لظروف سياسيّة اجتماعيّة، دون تهميش الرمز الزرادشتي بامتياز والذي يبسط جناحَي القدرة والصلاح على المكان أيّ مكان.

إنّه الفرفهار (فروهر بالفارسيّة)[1] "الملاك الحارس"، الحاضر على جميع أقواس المعابد الزردشتية ومعالمهم الأثريّة. يرمُزُ إلى التقدّم والتطوّر والكمال ما يرفعُ الإنسانَ ويجلبُ له السعادةَ القصوى. مبادئه الأساسيّة ثلاثة، حولها تدور حياةُ المؤمن وتتمكّن: "الفكرُ الصالح، والكلامُ الصالح (الطيّب)، والعملُ الصالح"، يرمز إليها الجناحُ ثلاثيُّ الشُّعُب والكون اللامتناهي (الحلقة المركزية الكبيرة)، المرتبطين بالمثالين الأساسيّين الحكمة (ملامح وجهه) والحبّ (الخاتم الأصغر، رمز التفاني بين يديه)، الحركة منبسطة إلى الأمام في عمليّة قيادة الإنسان نحو التقدّم والصلاح، نحو القدر السعيد (امتداد الجناحين).

وتكون الركائز السبع للزرادشتيّة هي التالية[2]:

١) عبادة الاله الواحد آهورامَزدا، الساطع المجيد، والأعظم، الأكثر جمالًا، والأحكم، خالق السماء والأرض والإنسان، والعناصر الأربعة (النار، والماء، والهواء والأرض)،. والمحاط بثنائيّة (أو توأمي) روح الحكمة والصلاح (Spenta Mainyu)، من جهة أولى، وروح الشرّ والهدم (Angra Mainyu)، من جهة ثانية

[1] نعتمد على شروحات ماري انطوانيت كُهْنْ لرمزيّة الزردشتيّة: "الصورة من وحي شرقي. الجزء العلوي من الجسم في شكل بشريّ. يُرى الإله بشكل جانبيّ ويخرج من الحلقة التي هي تذكير بالدائرة الكونيّة الشمسيّة، في إشارة إلى المفهوم المصريّ للطاقة التوليديّة للشمس. الدائرة تعني الحياة في التطوّر الدائم. على جانبي الجسم توجد أجنحةٌ كبيرة مرتّبة، وهي من سمات آلهة النّسور المصريّة. هم رمز التحرّر والانضمام إلى الروحانيّات. إنّها تسهّل على الإله أنْ يحلّق بسهولة عبر السماء.

يتكوّن الجزء السفليّ من الجسم من تنّورة قريبة من ذيل نسر. على الأجنحة وعلى التنّورة، هناك ثلاثة مستويات تستحضر المبادئ الثلاثة للزرادشتيّة: الفكر الصالح، والكلمة الطيبة، والعمل الصالح. من التنّورة، تظهر اثنتان من الحلزونات: إحداهما أمام الصورة الظلّية تشير إلى السلوكيّات الجيّدة التي يجب اتباعها، والأخرى، في الخلف، إلى السلوكيّات السيّئة التي يجب التخلّي عنها.

وجه الإله الملتحي مقلوب إلى اليمين؛ وهذه مظهر جانبيّ قريب من النماذج الآشوريّة. يرتدي على رأسه إمّا تاجًا كرويًا أو تاجًا مرصّعًا. يرفع يدَه اليُمنى ليؤكّد تفرّده. يحمل بيده اليسرى عنصرًا دائريًا يدعو إلى اتحاد جميع الشعوب في يد الإله الوحيد."

« LA RELIGION MAZDÉENNE DANS L'IRAN D'HIER ET D'AUJOURD'HUI Ahura-Mazda, Mithra et la réforme de Zarathoustra », par Mme Marie-Antoinette KUHN, p. 234 in http://documents.irevues.inist.fr/bitstream/handle/2042/33854/ANM_2001_227.pdf?sequence=1

[2] https://www.geo.fr/histoire/iran-les-7-piliers-du-zoroastrisme-194857 ; https://www.la-croix.com/Actualite/Monde/Les-principaux-piliers-du-zoroastrisme-2014-08-18-1193315

(S I)[٣] (Yasna 30: 3)، هذا الأخير ليس صنيعة إلهيّة، بل هو خيارٌ مُنحرفٌ لآهريمان، وامتدادٌ عمليٌّ لحريّة الإنسان.

٢) عملُ الخير والصلاح تثبيتًا لحريّة حكيمة ومسؤولة؛

٣) تكريم النار المشتعلة دائمًا بعيدًا عن الرياح السامّة التي قد ينفثها الأشرار؛

٤) النضال ضدّ كلّ أنواع القهر والخضوع، ومنها الاستعباد وعدم احترام المرأة كمساوية للرجل في كلّ شيء؛

٥) احترام كلّ أنواع الحياة وأشكالها ما يحتّم عدم قتل الحيوانات والتغذية النباتيّة؛

٦) نبذ كلّ أنواع الشعْوَذات وعبادة الأصنام والتركيز على أنّ الله لا يسكُنُ بيوتًا من حجارة، بل في قلب الانسان؛

٧) استثمارُ متعةَ الحياة، إذ تؤكد تعاليمُ زرادشت على أهميّة التواضع والتضامن مع القريب، ولا تهمل روحَ الدُعابة. فإقامة الحفلات الدوريّة أمرٌ محبّذ جدًّا، لأنّ المرح والضحك هما أيضًا من مبادئ الزرادشتيّة، وهذا ما تراه مُرتسمًا بوضوح على وجوه المؤمنين وفي علاقاتهم الاجتماعيّة وأناشيدهم.

غير ذلك، ذكّرني معبدُ الزرادشتيّين في السليمانيّة بكنائسنا المارونيّة القديمة التي امتازت هي أيضًا ببساطتها الهندسيّة ومحتوياتها الطقسيّة. فمكان العبادة غرفةُ لقاء واجتماع يشكّلان الإطارَ العام لصلاة جماعيّة هي تعبيرٌ حيّ عن الإلفة والتضامن الناطِقين في حميميّة المكان المقدّس. إذ لا قُدسيّة حقيقيّة حيث لا مكان للآخر، ولا جَدليّة روحيّة عَرْضيّة حيث لا مَعيّة تجاوزيّة ترفعُ الكلّ واحدًا إلى فوق، وتهبطُ بالأحد نِعمًا وبركاتٍ على الجميع. وبساطةُ المكان المقدّس رمزيّة قصوى للمطلق في بساطته، تطغى على ما تبقّى من رموز على أهميّتها.

متسلّحًا بهذه الرمزيّة، ومراهنًا على توافقيّة المقصديّة التضامنيّة مع مدلولات الرموز، ومضامين التعليم الإنسانيّ، والانفتاح الأخويّ الصادق على الآخر المختلف، كما تؤكّد على ذلك قاعةُ العيش المشترك المحاذية للمعبد، استهلّيت كلامي بشكر الصديقَين، السيّدة ئاوات طيّب وزوجها السيّد جمال سليم اللذين كان لي شرف استضافتهما في مركز دراسات الأقليّات في الشرق الأوسط في الكسليك، منذ سنتين، وقد كرّسا وقتهما لمرافقتي في زيارتي لمركزهما في السليمانيّة، بخاصّة وأنّ السيدّة ئاوات حُسام الدين طيّب، هي ممثّلة الزرادشتيين في وزارة الأوقاف

---

[٣] "نعم، هناك روحان أساسيّان، توأمان معروفان أنّهما في صراع. في الفكر والكلام وفي العمل هما اثنان: الطيب (سبينتا مانيو) والسيئ (أنجرا مانيو)، وبين هذين، اختار المستفيدُ بشكل صحيح وليس الخبيث."

" Exploring the Gathas: Creation — Amesha Spentas Good and Evil — Reward and Retribution" — Ervad Behram M. Panthaki Ushta-no zato Athrava, yo Spitamo Zarathushtro Fortunate are we that the Teacher was born, Spitama Zarathushtra (Yasna xii - 94), https://zamwi.org/wp-content/uploads/2015/07/Exploring-the-Gathas.pdf

" **3.** Or (je proclamerai) ces deux esprits primitifs qui ont été appelés d'après leur propre opération en pensées, en paroles et en actions, l'esprit bon et le mauvais ; que les justes savent discerner avec vérité et les méchants point." Dans Bibliothèque orientale, Vol V, Avesta le livre sacré des anciens Perses, traduction du texte ZEND par Charles de Harlez, Paris Maisonneuve & C^ie^,1881, *YAÇNA*, XXX, p. 320s

والشؤون الدينية في حكومة اقليم كردستان العراق. ومع توسيع الشكر ليشمل الحاضرين بخاصّة رجل الدّين، صاحب الكلمة الترحيبيّة، لم تكن هناك كلمة سوى كلمة الرّب يسوع صلاةً بنويّة لأبانا السماويّ. فالمسيح لم يأتِ لليهود فقط، ولم يشأ أنْ يؤسّس كنيسةً على اسمه فقط، وإذ فضّلَ تسميةَ نفسه "ابن الانسان" على ابن داود أو ابن إبراهيم واسحق ويعقوب، فلأنّه أتى للإنسان، لكلّ إنسان، في كلّ زمان ومكان، في كلّ لون وعرق ودين. فالصلاةُ الوحيدة التي علّمها تلاميذَه هي أنْ يتوجّهوا، بصيغة الجمع، إلى أبيهم في السماوات، مقدّسين اسمَه كأبناء صالحين، عاملين بالصلاح في ملكوته الحيّ في قلب كلّ منهم، ومُتمّمين مشيئتَه في أعمالهم الصالحة وخياراتِهم الحكيمة، لكي يتمجّدَ اسمُ الرّب يسوع في كلّ عمل نقوم به، أكلًا أو شربًا أو أيّ شيء آخر (كو ١٠: ٣١).

في هذا الاطار الإنسانيّ الأخويّ، تتلخّصُ عقيدة المحبّة الشاملة فكرًا، وقولًا، وعملًا، وتتجلّى في أبهى المظاهر مع قبول الاختلاف عند الآخر وحبِّه كما هو وليس كما أريده أنا أنْ يكون. فاعترافُ المجوس، الآتين من بعيد على هدي النجم الساطع، بمسيحانيّة ابن الانسان، لا يقلّ أهميّة عن اعتراف الرعاة البسطاء، وقد رنّ في قلبهم وفي وجدانهم نشيدُ التعظيم والتمجيد، فهتفوا مع الملائكة: "مباركٌ الآتي باسم الرّب"، وأسرعوا يستدفئون قرب الملك النائم في مذود تحقيقًا رمزيًّا مُسبقًا للعدالة وصونًا نوعيًّا للكرامة، ممجدين اللهَ في العُلى، متهيّبين تحقيقَ الوعد والسلامَ على الأرض. وعدالة ابن الانسان ثلاثيّة الأبعاد، كونيّة، وإنسانيّة اجتماعيّة، وإلهيّة، تقابلها كرامةُ الكائن في فردانيّته، وفي انتمائه الجماعيّ، وفي كونيّته المترامية. كلّ الخلائق انتظرت تجلّي ابن الانسان لتخلصَ معه وتتألّق على ضوء الشعاع المتفجّر من عينيه ومن قلبه (روما، ٨: ١٩-٢٢).

تتكلّمون عن عدالة وسلام، وتعملون على إرساء أطر التوافق والتناغم في المجتمعات التي تعيشون فيها، وتحترمون الآخر في معتقده ودينه وتفرضون احترامًا ألفيًّا بثباتكم وتعاليمكم النيّرة والإنسانيّة. في هذا كلّه تلاقٍ أكيد مع المسيحيّة وهي كنيسة "ابن الانسان"، ثمرة محبّته الفائقة التي أوصلته إلى التضحيّة بذاته حتى الصليب لتثبيت أسس العائلة الإنسانيّة الواحدة القادرة على رفع عينيها إلى الآب السماويّ الواحد، وعبور جسر شنقات الأخير (**ياسنا** ١٠)، لمن استحقّ وتمكّن من الوصول إلى الضِفّة النورانيّة، الملكوت السماويّ وتحقيق الخلود "(Ameretat) في الكمال، والتمتّع بالعقل الصالح الخيّر (Vohu Manah)، وبأنوار الحقيقة الفضلى أو النظام الأفضل (Asha Vahishta)، بعد الجهد الشخصيّ في السيطرة على النفس والعصبيّة (Khshathra Vairya)، والعمل على تعزيز الرحمة والمحبة والوفاء بالعهد (Spenta Armaiti) ملء الحكمة (Haurvatāt)، القادرة مجتمعة[٤] على قلب موازين

[٤] "إنّها الكائنات الإلهية الستّة أو رؤساء الملائكة الذين خلقهم أهورمزدا، الرّب الحكيم، للمساعدة في التحكّم في الخليقة. ثلاثة ذكور وثلاث إناث. إنّهم وزراء قوّته ضدّ الروح الشريرة، Ahriman، تم تصويرهم متجمعين حول أهورمزدا على عروش ذهبيّة حضرتها الملائكة. هم الخيرات الأبدية للخير. يُعبدون بشكل منفصل ويقال إنّهم ينزلون للخدمة على دروب النور. لكلّ منها شهرٌ خاصّ ومهرجان وزهرة وترأس عنصرًا في النظام العالميّ."
https://www.britannica.com/topic/amesha-spenta#ref61691

الأمور لصالح الخير على حساب الأعمال الشريّرة، التي لا تجد محفّزًا لها إلّا في قلب الإنسان الذي يتهاون في عمل الخير وتثبيته. وإنِ اختزلتِ المحبّةُ المسيحيّةُ الدرجاتِ الستّ أو القوى الروحيّة الستّ، فلأنّها تختزنُ لوحدها ما فاضَ من حكمة، وعدالة، وإنصاف، وسيطرة على الأهواء لبلوغ الحقيقة في تماس والكمال الذي لا يكون إلّا فيها، في قلب الله بالذات.

إنّها زيارة تاريخيّة، بدأت مساءً بدعوة على العشاء مع الزوجين الصديقين، وانتهت أيضًا بالمشاركة في ضيافة كريمة، مع أبناء الطائفة الزرادشتيّة مجتمعين فرحين، مزجت الروحيّ إلى الجسديّ، والانسانيّ والاجتماعيّ. زيارة تعود بالزمن وتختصرُ تاريخَ العلاقاتِ الصحيحة بين الشعوب والمعتقدات التي تحترم الإنسان وتقدّس مبدأ الأخوّة الحقيقيّة الذي يسمو على اختلاف العرق، واللغة، والعقيدة. زيارة نورانيّة تتركُ أثرَ أشعتّها في حميميّة الأُلفة وأصدقها.

يوحنا عقيقي

السيدّة ئاوات حُسام الدين طيّب، ممثّلة الزرادشتيين في وزارة الأوقاف والشؤون الدينية في حكومة اقليم كردستان العراق

ينشدون لزرادشت

صورة تذكاريّة

مدخل المركز في السليمانيّة